الخريف في حلوان

قصيدة من الشعر الوصفي التحليلي لمشاهد الطبيعة في مصر من أجل مصاح الشرق ، اهداها الناظم الى صديقه الشاعر الطائر الصيت خليل بك مطران تذكاراً لزيارته له في حلوان في نوفمبر سنة ١٩٢٣ م .

هذا الجمالُ وذاكَ سِحْرُ بيانه ... فاشربْ كؤوسَ الحسن من إحسانهِ

وتلقَّ إلهام الطبيعةِ شارحاً ... سرَّ الوجود يشفُّ عن قرآنه

حُلوٌ من العيشِ اللذيذ سناؤه ... لا غروَ أن يُهدى الى (حُلْوانه)

بلدٌ به خلعَ الرَّبيعُ خريفه ... وأقامَ صدَّاحا على أفنانه

يسقيكَ اكسير الحياة هواؤه ... منْ نفح (آذارٍ) ومن (نيسانه)

الشمسُ قد تخذَتْه عاصمةً لها ... والشُّهْبُ والأقمارُ من سكانه

رصدُوا به وهجَ الكواكبِ خلسةً ... وأحبُّها دانٍ على جدرانه

يختارُهُ الأعيانُ خيرَ مثابةٍ ... واللطفُ والايناسُ منْ أعيانه

شاقتْ به حتى الحجارة رونقاً ... وطهارةً سطعتْ على رَيْعانه

لو كان فى عصرٍ مضى لرأيته ... كالهيكل المعتزّ من أوثانه

يَفِدُ الحجيجُ الى عيون سهوله ... والناسكون الى رؤوس رعانه

متباركين ولا نبينَ ترابهُ ... مستكرمين البرَّ منْ غفرانهِ

لو ثمَّنوه — وما يُثمَّنُ موئلٌ — ... ما عُدَّ أسنى الماس منْ أثمانه

ولكلِّ غالٍ حَدُّه ومقامهُ ... فى القلبِ الاَّ مُنْتهى إيمانهِ

* * *

بكِّرْ معي (للفجر) قبلَ أذانهِ ... نقمِ الصلاة لروعةٍ منْ شانهِ

غلبَ السكونُ هُدًى عليه كأنما ... في الوعظِ يفصحُ منتهى كتمانه
وكأنَّ فهم الغيبِ رهنُ سكونه ... وكأنَّ أصل الغيبِ في أكنانه
قُمْ حيِّهِ قبل الفواتِ وإن يعِدْ ... أضعاف هذا الجودِ منْ أخدانه
فرْضٌ على الوافي الأبرّ بفنّه ... والفنّ للمعبود منْ أديانه
هذا النهارُ رأى الدُّجى فتصارَعا ... وتكفّلَ العاني بدفع رهانه
انظرْ الى الدرّ الدقيق من النَّدَى ... سِتْراً توارى التبرُ خلف حسانه
انظرْ الى الكون المحلّل نهبُهُ ... هذي الحلىّ نُبثّ في أردانه
انظرْ تنزُّلَ مائه ونباته ... وهوائه يضحكْنَ منْ إنسانه
يهتزُّ حتى الصخرُ منْ طربٍ لها ... ويحنّ حتى الطيرُ في ألحانه
انظرْ فما هي غير غفلة حارسٍ ... حتى يهمَّ الصبحُ في ركبانه
ركبوا الأثيرَ من السنين ألوفها ... وجميعُهمْ للدَّهْرِ منْ ولدانه
منْ كلّ بسّام الشُّعاع موفقٍ ... في برّه الشافي وفي عدوانه
يُهْدي من الطبّ العتيق مُدامه ... ويجولُ معتزّاً بلمع سنانه
وتقودُ عسكرَه (ذُكاه) كأنها ... (جَنْدَرَكٌ) فارسةٌ على فرسانه

* * *

هجمَ (الصَّباح) فكان أولَ هاربٍ ... نَجْمُ الصَّباحِ رأى نجومَ لدانه
واهتزّ من زُمَرِ النَّخيل طويلُها ... وزكتْ بناتُ النَّبْتِ من ريحانه
وتمايلَ الكافورُ شُكرَ مُعوّض ... عن زَهْرِهِ الفاني على أغصانه
وأدار زهرُ الياسمين كؤوسَه ... منْ خَمْر صاحبِهِ ومنْ وسنانه
نُثرت لآلئهُ الزكيّةُ مثلها ... منْ (مَدْمع العذراء)[1] نثرُ دنانه
ومن الوُرود النّارُ فوق خُدودِه ... ومن الخزام التبر في أجفانه

(١) (مدمع العذراء) نوع من الخمر الشرقي لبني اللون سمي بذلك

ومن المِدُوزِ البَنْجُ فيّاحُ الشَّذَى والفُلُّ مَنّانٌ على عيدانه
وتنازعتْ صُورُ الوجودِ فبعضُها خاشٍ وبعضٌ هافتٌ بحنانه
مَرْأىً له بين الدُّموعِ تبسُّمٌ ومُتَوَّجٌ يختالُ منْ تيجانه
تثبُ الحياةُ به فلو حيّا الحيا منه الدَّفينَ لقام منْ أكفانه
سَكْرَى به الدُّنيا وأبلغُ سُكْرِها أن تُوقِظَ الدُّنيا سلافةُ حانه
البلبلُ المحكيُّ ينشد شعره والطيرُ راقصةٌ على ديوانه
لو حاول الشُّعراء أبلغَ وصفهم لم يُحْسِنوا الاّ على أوزانه
ومن النسيم مُداعبٌ ومُغازلٌ يُقري المحبَّ الحُبَّ منْ غزلانه
ومن الرِّياضِ مَعارضٌ لجواهرٍ الرَّملُ عارضَها على كُثبانه
ومن الاشعّةِ ما تدفّق بَلْسَماً جاد الزّمانُ به على عُميانه
ومن المنازل للشموس منازلٌ الحظ قسّمها على ندمانه

***

خلّ (الضُّحى) الضحّاك في تبيانه يلهو ويلعبُ في مدى ميدانه
ويُذيبُ كلّ مُذهّبٍ ومفضّضٍ منْ قُرص عسجده ومن قضبانه
وبرشُّ نوّارَ السماء بنورِه وسحابها الوضّاء في بستانه
ويحوّلُ الكبريتَ فُسفوراً حلا مِن سحْرِ طلعتهِ وأمْعَ دهانه
أوْفَى فلم يتركْ جمالاً ظامئاً الاّ حباهُ البرَّ من طوفانه
دَعْهُ المبدّدَ في قصير زمانه مُلكاً حباه اللهُ من سلطانه
وتعالَ نرتقبِ (الأصيلَ) فانّه أصلُ (الغروبِ) فجاءَ في عنوانه
خلعَ الغرامُ عليــه صُفرةَ عاشقٍ ودلالَ معشوقٍ وصفوَ أمانه
قفْ وارْقب الغرَّ التلالَ يزينها تفويفُ هــذا النّور من الوانه
قفْ وارقب (النيلَ) السعيدَ نخالهُ من زئبق للسَّعْد في ميزانه

عبثَ الاصيلُ به فحوّلَ فضّةً ... وسطا اللجينُ به على عقيانهِ
وكأنّ آلاف النخيلِ نحدُّه ... من شاطئيهِ الجيشُ من أعوانه
واذا قدمتَ الى الغديرِ حسبتَه ... ـ (والنيلُ) ساعده ـ أحبّ بَنانه
غنّى الخريرُ به فصفّق فوقه ... صفصافهُ، ورزهتْ معاطفُ بانه
ومن السماءِ زبرجدٌ وزُمرّدٌ ... ومن الحصى والرّملِ ذخرُ جمانه
ومن المشاهدِ آسراتُ عواطفٍ ... ومحرّراتُ الوصفِ من وجدانه
لا كان مخلوقٌ يمجّدُ ربّه ... من ليس يعبدُ صُنعه بجنانه

* * *

يا (للغروب) ونظرةٍ لمكانه ... أهدتْ لنا الاشجان من أشجانهِ
آن الاوانُ فأى عينٍ لم تقفْ ... أسفاً وشوقاً منه عند أوانه
وتفي من التحنان قبلةَ نورِه ... وتغصُّ بالآلام من نيرانه
حتى اذا خلعتْ عليهِ رداءَها ... لم يخشَ عاشقُها على هجرانهِ
وأشار بالتوديع حارسُ خدرها ... فتزيده قُبلا على نُكرانه
ولطالما كان الوداعُ بقُبلة ... أشهى وأبدع مِنْ وداعٍ لسانهِ
ولطالما شاقَ الوداعُ مودّعاً ... مادامَ لا يُفضي الى حرمانهِ
لمرضَ (فرعونٌ) لِبابِ غُروبها ... (هَرَمَيْه) الاّ حيلةً لقرانه[1]
هل كان ذاك الخدرُ الاّ عرشَهُ ... أو كان منزلُها سوى صيوانهِ
هو موقفٌ ذو وحشة وجلالة ... ولقد ينالُ الوجدُ مِنْ صوّانهِ
تختالُ بينهما موردّةَ السّنى ... بقميصها الورديّ مِنْ قمصانهِ
غابتْ ومن كلّ المشاعر هاتفٌ ... ببقائها والقلبُ في خلجانه
وعلى السماءِ رداؤُها متشبّعٌ ... بفواجع الاصباغ مِنْ نسيانهِ

(١) اشارة الى منظر غروب الشمس بين هرمي سقارة

مابين مرجانٍ وقانٍ مِنْ دَمٍ غلبَ النَّجيعُ به على رُمَّانه
نحتتْ من الاشكالِ كلَّ مُرَوَّعٍ وكأنَّها (نيرونُ) فوق حِصَانه
وكأنَّما القمر المجدَّدُ وراءها مفتونُها السَّاعي الى فتَّانهِ
كم خصَّها (فرعونُ) منْ ملكوتهِ بالحمدِ والتسْبيحِ منْ رُهبانه
أخْلِقْ بهِ وهو الجليل بطبعه أن ينشرَ الاجلالَ في بُلدانه
أخلقْ به وهو الشُّجاعُ مناقباً أن لا يُقصِّر في عُلى أقرانه
ما كان وهو المستعزُّ (بنيلهِ) إغفالُ مُلكِ الشمسِ في إمكانه
كانت إذا سطعتْ فتلكَ زيارةٌ مَلَكيَّةٌ جادت على أوطانه
أذكى البَخُورَ لها فتُحيي أرؤسٌ منْ شعبهِ الجاني الى كُهَّانه
وتزيد بالتكرار بَهْجَةَ عرشها ويزيد بالاخلاص صدقُ ضمانه

***

وأتى (المساء) بمحفَلٍ متتابع ملأ الفضاءَ بخيلهِ ودخانه
زحفتْ له فرقٌ تعلَّمتِ الوغى طولَ الوجودِ على مدى أزمانه
تقتادُهُ الثاراتُ وهو مُسائلٌ : « أين الذى الهرَمانِ منْ بنيانه » ؟
ومن المكارم عِصمةٌ لكرامه ومن الوفاءِ البأسُ فى شجعانه
وله المصابيحُ العِداد تعلَّقتْ بسلاسلٍ وزهتْ بأيدي جانه
هجمَ الهجومَ المستميتَ لاجله من دونِ صَوْتٍ مُعْلِنٍ لطعانه
إلاّ حفيفاً من غُصونٍ رُوِّعت فحدا بها حادٍ الى خذلانه
وتحجَّبتْ منه الشموسُ بدُورها وتسَتَّر العُشَّاق في ابوانه
ونَبَتْ كتائبُهُ فلما أنصفتْ شهداءَها تُرِكَ الهوى لعنانه
بَسَمَتْ له الاملاكُ بين خمائلٍ وقضت طهارتُهُ على شيطانه
وأضافَه الليلُ الطَّروبُ وسرّه والحبُّ لم يُفطَرْ على عصيانه

ما بين واسع حلمه وسخائه وسمير نَسْمَتِهِ وعزْفِ قيانه
وكذا البقاء يطيبُ منْ حدثانه فالمرء مُنْعَمُ قلبه وعيانه
لا المالُ يُغنيه بقَفْرِ حُبورهِ أو يستتمُّ به على نقصانه
لو ذاق نَشْوانٌ سعادةَ عُمره فالحُسْنُ فَيَّاضٌ على نشوانه
مِتِّعْ شعورك بالحياةِ فانما للحيِّ أنسٌ جلَّ عن حُسْبانه

***

(مُطْرانُ) إنْ نزعتْ اليك بدائعي فالشعرُ نزَّاعٌ الى مُطْرانه
أهديتُها وبكلِّ لفظٍ مِنْبَرٌ لواطفي وهوًى الى أمَّانه
وجعلتُها تذكار وحيك زائري فأجزْ لها الاكرام منْ عرفانه

احمد زكي أبو شادي

﴿ قبرا معدّ وتميم ﴾

مَرّان منزل على أربع مراحل من مكة الى البصرة . وفيه قبر معدّ بن عدنانَ من الاقدمين ، وعمرو بن عبيد من الاسلاميين . ويظن بعضهم ان تميم بن مُرّ من سلالة مُضر بن نزار مدفون هناك ، حتى قال جرير يذكر جده تميماً :

اني أنا الشاعر المغرور حرّ بني جارٌ لقبر على مَرّان مرموسِ

فأنكر ذلك رُؤبة بن العجاج — على ما جاء في الموشّح للمرزباني ص ١١٩ — وقال : « ما تميم بمرّان ، انما هو بذات عِرق وقبر معدّ بمرّان »

أما عمرو بن عبيد فمدفون بمرّان ، وقد رثاه الخليفة أبو جعفر المنصور فقال :

صلى الاله عليك من متوسّد قبراً مررتُ به على مرّانِ
قبراً تضمن مؤمناً متحنّفاً صَدَق الاله ودان بالقرآن
لو أن هذا الدهر أبقى صالحاً أبقى لنا عَمْراً أبا عثمانِ